كانت الليلة تميل الى الدفء وأنا أعبر الممشى المشجر المؤدى الى مسكن عميد الأدب · والبيوت على الجانبين ليس فيها الا النور الداخلي فلف الحي هدوء طارىء فوق هدوئه الطبيعي ·

وعند منحدر الطريق لمحت على البعد مصباحا ساهرا على باب الدكتور طه كأنما ليرشد الضيوف · وكان وحده هو الذي يلقي النور على الطريق الذي ظللته الأشجار .

وكنت أحدث نفسي مقدما عما سأقوله له ·· وكان في النفس أشياء كثيرة يمكن أن تقال · عندما يرتفع الحجاب بين الأستاذ والتلميذ ويحس كل منهما أنه جزء في (محيط الحقائق) ·

وقبل أن أصل الى باب الدكتور طه عبرت الى ذهني خاطرة من كتاب «الأيام» هي كلمات أعرفها ··في نبرات لاأعرفها لكنني حاولت أن أجعل نبرة المتحدث بهذه الكلمات قريبة جدا من نبرات طه حسين · ولو أن ذلك كان في خريف سنة ١٩٠٢ ، حين قال له أبوه وهو صبي لا يزال في القرية بنبرة لا شك أنها قريبة من نبرة الدكتور طه :

« أما في هذه المرة فستذهب الى القاهرة مع أخيك وستصبح مجاورا وستجتهد في طلب العلم · وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك من علماء الأزهر قد جلست الى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدة » · وفي هذه اللحظة كنت قد وصلت الى باب الفيلا فابتسمت لخواطري · وتصورت (الحلقة البعيدة المدى) التي تحققت لطه حسين .. والقاهرة مركزها والعالم محيطها · وأمنية أبيه له قد ترجمت الى كل لغات الدنيا .

وخطوت عدة خطوات الى الداخل بعد أن أخذت عيني لافتة على الباب الخارجي كتبت عليها كلمة « زامتان » اسم الفيلا التي يسكنها طه حسين ·

ولم أدق الجرس ليفتح لي الباب الثاني بل وقفت برهة أتأمل الليل والأشجار الحانية على المبنى في وداعة · والسكون « الحي » الذي هو في الحقيقة مصدر الحركة بالنسبة لساكن الفيلا ·

ولم يكن الدكتور طه في قاعة المكتبة حين دخلت (كما تعودنا أن نلقاه) كان لا يزال مشغولا مع أحد الصحفيين الأجانب · وجلست مع سكرتيره الأستاذ فريد شحاته نتكلم في شئون الأدب والتاريخ · وكنت أنا في دائرة ضوء احدى «الأباجورات» الكبيرة التي توجد في قاعة المكتبة وأمامي أوراق وقهوة · وفي الرفوف على الجدران الأربعة أفكار أجيال في مجلدات مختلفة الاحجام كان سكرتير

الدكتور يشـــير الى بعضـها كلما دعا الحديث ·

ثم نهضت لأسلم على طه حسين· دخل مؤلف (الايام) وعلى فمه ابتســـامة لم تستطع الايام أن تسلبها خصائصها· وكان بادى النشاط فى هذه الليلة فقلت له وأنا محرج بعض الشىء :

ـ أرجوك يا سيدى ·· عندما تضيق بوجودى أن تسمح لى بالانصراف ·

فضحك فى سماحة وقال لى :

ـ تأكد أننى لن أضيق بوجودك مهما يطل · ولكننى قد أضيق بالأسئلة· هذا كل مافى الأمر ·

عندئذ سألته السؤال الأول · قلت:

ـان قصة الأيام من القصص التى استولت على قلبى · قرأتهـــا وأنا فى مقتبل شبابى تحت مصباح الجاز فى حى وطنى · وأنا أعتبرها من أهم أعمـالك الأدبية · فهل من الممكن أن تحدث قراء مجلة القصة عن الارهاصات التى سبقت هذا العمل ؟ ·

كان القلم فى يدى مستعدا للكتابة · وكنت أرقب الدكتور طه الذى ظننته سيصمت طـــويلا قبل الاجابة · لأن استعادة الماضى أحيانا تتطلب تجمعـــا ووثوبا · لكن اشارة بدء الحديث لمعت على فمه ·· وكانت ابتسامة صغـيرة · قال بعدها :

ـ لعل اخص خصائص كتاب (الايام) أنه كتب للهرب من الحياة الواقعـــة · تصور أننى كتبته هربا من الحياة الواقعة·

كنت حينئذ فى فرنســـا · وكنت ضائقا أشد الضيق بالحياة العقليـــة فى مصر لأن أزمة كتاب (الشعر الجاهلى) المشهورة كانت قائمة على قدم وســـاق ودخلت أزمته الى البرلمان وهـــدد عدلى بالاستقالة ·

كل هذا أصابنى بضيق شديد جعلنى أفزع الى الماضى · فأخذت فى املاء الجزء الأول من الكتاب وأنا فى الخارج · وانتهى العمل وانتهت اقامتى فى فرنسا وعدت الى وطنى الى مصر · فوجدت شيئا عاما بانتظارى هو أننى محال الى النيـــابة للتحقيق معى فى أمر كتاب (الشـــعر الجاهلى) ·

وذهبت الى غرفة رئيس النيابة · اننى لا ازال أذكر لقبـــه فهو من عائلة نور المشهورة ووجدت فى القاعة عددا ضخما من علماء الأزهر جاءوا ليناقشونى فى الموضوع أمام رئيس النيـــابة بناء على دعوته اياهم وأذكر أن النقاش امتـــد بيننا طويلا حتى تعبوا . عندئذ قال أحد العلماء لرئيس النيـــابة : ياصـــاحب السعادة : ليس عندى ما أقوله فى هذا المقام الا ما قاله ابن حزم فى الأشعرى : « الأشعرى كافر حلال الدم » . وقال آخر : « وهذا دم ضيعه أهله .

غير أن الجدل استمر بعد ذلك طـــويلا حتى صاح الشيخ الابيارى فجأة من شدة الصداع وهو يضع كفيه على صـــدغيه : ياصاحب السعادة ·· اطلب لى فنجـــالا من القهوة ·

وسكت طه حسين قليلا ورجع برأسه الى الوراء كأنما ليتذكر شيئا جديدا ثم قال لى :

ومن الغريب أننى أمليت الجزء الثانى فى فرنسا وأنا فى أزمة كذلك كنت وقتئذ عميدا لكلية الآداب وحدث نزاع بينى وبين الحكومة بسبب كتاب لبرناردشـــو كان يدرس فى الكلية رأت الحكومة فيـــه

سببا لا يرضيها . وكان وزير المعارف في ذلك الوقت هو المرحوم الدكتور هيكل في وزارة محمد محمود . وفوجئت بمظاهرة تعبر الى حجرتي كانت مؤلفة من طلبة كلية الحقوق كلفوا بالهجوم على عندئذ رأيت أنه لامفر من الاستقالة . ثم سافرت الى فرنسا فأمليت الجزء الثاني من كتاب الأيام .

قلت للدكتور طه :

أليس من الغريب أن يكون الهروب من الحياة الواقعية سببا في أن تكتب للأدب العربي قصة واقعية ؟ .

قال :

نعم .. هذا غريب ..

قلت في نفسي : ان الأزمة قد تخلق البطل وتمنح المعجزة .

وكانت خواطري أو جزء منها معفنان يعيد منح الأدب العالمي كثيرا مما منح نتيجة لأزماته . دستويفسكي الذي قال لدائنيه وهم يطرقون عليه الباب وهو يكتب : « انني مدين لكم بأكثر من المال» لأنهم كانوا يدفعونه الى الكتابة .

ثم قلت لعميد الأدب وأنا أنظر اليه وكأني انظر الى أحد المحاربين القدامى الذين لم يلقوا السلاح . وجهت اليه السؤال التالي :

ـ لاتزال المعركة بين القديم والجديد قائمة وان تغيرت الأرض والأسلحة والاغراض .

وقد رفعتم لواء هذه المعركة في أوائل هذا القرن . فهل من ذكريات عنها ؟

قال الدكتور طه :

ـ كنت مشرفا على صفحة الأدب في جريدة السياسة . وكانت الأمور تمشي عادية جدا حتى جاء مقال بعنوان : «رسالة عتاب الى صديق » وكاتب من المرحوم مصطفى صادق الرافعي .

وأقول لك الحق : انني قرأت الرسالة بامعان شديد فضقت بها أشد الضيق . ثم عدت فقرأتها فاشتد ضيقي . لأنها كانت مكتوبة بأسلوب لا يطاق . عندئذ نشرتها مع تعليق عليها . أذكر أنني قلت فيه : ان الأسلوب الذي كتبت به هذه الرسالة اصبح لا يلائم روح العصر . ولابد أن تتحرر الكتابة من جديد من الأغلال التي يفرضها عليها الرافعي .

وكان الرافعي سريع الغضب فرد ردا عنيفا ورددت ردا أعنف ومن هنا قامت المشكلة بين القدامى والمحدثين . واشترك في هذه المعركة العقاد والمازني . وكان من أثر ذلك أن ألف الرافعي كتاب «على السفور » ضد العقاد . ثم ألف كتاب « تحت راية القرآن » ردا على كتاب « الشعر الجاهلي » الذي سبق الحديث عنه وكانت مقالات الرافعي عني أقرب الى الشتم بل ربما كانت شتما صريحا جارحا وكانت تنشر في احدى الصحف اليومية وأظن أنها (كوكب الشرق) .

وضحك الدكتور طه كأنما ليمهد لاعتراف قبل أن يقول :

وهكذا اشتدت الخصومة .. اشتدت الى حد أنني كنت أهاجم كل كتاب يظهر لمصطفى صادق الرافعي . لكني لا أزال أقرر أن أحسن كتاب له هو « الرواية والرواة » والمعركة لا تزال قائمة حتى اليوم كما قلت .

والشبان يفهمون أنني أنا والعقاد من أنصار القديم . لكنني مثلا أستطيع أن أقرر أنني لست ضد الشعر الجديد على طول الخط مثل موقف العقاد منه . انني أبيح الشعر الجديد وأقبله على شرط أن

يكون « شـــعرا » بمعنى أن تتوفر له الموسيقى والمعانى والأخيلة ويكون ملائما للذوق مرضيا له معبرا عن الطموح الى امام

لكن هناك فرقا بين المعركتين. فالذين كتبوا بين الحرب الأولى والثانية كانوا مثقفين ثقافة واسعة متنوعة عميقـــة . وكانوا يكثرون من القراءة . أما الذين يكتبون الآن فأقل مايوصفون به أن ثقافتهم محدودة وقلما يقرأون .

ثم عرض الدكتور طه لعدة صـــور للموضوع :

صورة المعـــاداة للآداب العـــالمية وصورة اللغة التي يكتب بها أدبيـــا او يترجم .

قال :

أما معاداة الآداب العالمية فليس لهـــا معنى الا أن نعيش على (نفسينا) حتى نروى ونموت . وأما لغة الأدب كتابة وترجمة فقد كثر فيها الحديث . لكنه يحضرني عنوان كتبه في الجمهورية نعمان عاشور هو « لغة المسرح من تاني » وهذا يذكرني بترجمة شكسبير للعامية التي كان نعمان عاشور ينوى تقليدها . وعلى رأى الدكتور مندور في هذا . « وعندما ينادى « ديدمونة » (عطيل) فانها ستقول له « ياعطول » .

وضحك الدكتور طه ثم استطرد :

صدقني أنهم يظلمون الشعب . ان هذا الشـــعب يحب كل الحب ان يقرأ العربية الفصحى وأن يسمع العربيـــة الفصحى . صـــدقني انه شعب عميق الذوق، والتحدث اليهم بالفصحى يرفعهم في أنفسهم . وأذكر أنى عـــندما كنت أتحدث في الراديو بالفصـــحى كانت رسائل الاستحسان والاستزادة لاتنقطع عنى . والمـــألة بعد ذلك ليست محتاجة الى توضيح .

قلت لعميد الأدب :

ـ المدارس الادبية التى تتتابع عـــلى أدبنا كلها من بلاد أجنبية تصل الينا بعد ازدهارها في مواطنها .

فأكمل قائلا او روالها .

قلت :

نعم او روالها .. وبعد . فهل ترفضون قصة عربية ما لا تتبع احدث المدارس القصصية ؟ .

فقال الدكتور طه :

ـ لا . مطلقا . لا نرفض القصة من أى مدرسة ادبية . لكن هناك شيئا هاما يجب أن نعرفه . هو أن الذين يتكلمون عن الواقعية يفهمون خطأ أن الواقع هو التعبير بالعامية لأن أبطال القصة هم فى الواقع قاموا يتكلمون العامية . والحرص على هذا الواقع منقول الينا من روسيا بلا افهام .

واتجه الى الدكتور طه يؤكد انه لايجب ان يتهم أحدا وانما هو يقصد وجه الحق بل هو لا يستسيغ الاتهام . واستطرد :

وهناك دليل آخر على ما أقول : هو أن كل الكتب فى روسيا تكتب باللغة الروسية العالية . وفى فرنسا أيضا .. كان هناك كاتب واحد او اثنان أرادوا ان يكتبوا الأدب باللغة الدارجة وبذلوا محاولة بعد أخرى لكنهم فشلوا ولم تنجح محاولاتهم .

وحرفنا دفة المدارس الأدبية الى سؤال اكثر أهمية كنت أكتم فى نفسى بعض الحرج من التوجه به الى طه حسين لكنى قلت :

ـ هل الشخصية الادبية العربية لم تصل بعد الى حد النضج الذى يمكنها

من ارساء مدرسة أدبية عربية مستقلة كالرومانسية والواقعية التي وردت من الخارج ؟! .

فقال عميد الأدب :

ـ السر في ذلك هو أننا نتعلم العصحى ولا نتكلمها . خذ مثلا لذلك : الشعر .. نحن نعرف الجاهليين في شعرهم ونعرف أوزانه كذلك لكن من المؤكد أنه في صدر الاسلام والعصر الاموي دخلت الحضارة الى الحجاز ودخل الاسرى الاغاني والموسيقى والغناء . فنشأت في الشعر العربي أشياء جديدة . فقد ابتكر الشعر بحورا أخف من بحور الشعر الجاهلي أوزانها قصيرة تتوام مع التوقيع الموسيقي وعرفت (المجزوءات) وقس على ذلك ما حدث في العصر العباسي . ولما اشتد الخلاف بين العرب وغيرهم تأثر الشعر بهذا فاندفعوا في التجديد ، مال كل شيء الى الخفة . والتجديد في المعاني أمره مشهور عند أبي نواس . والتجديد في الاوزان أمره مشهور عند مسلم بن الوليد . بيت الشعر العربي أخذ عنده هذه الصورة :

محمد بن منصور الفتى الجواد
وضحك طه حسين قبل أن يقول :
تصور أنا لا نتكلم الفصحى حتى لو جلست أنا والعقاد .

ثم بدا عليه الارتياح وقال :

لكن ـ مع ذلك يحيل الى أننا وصلنا الى جديد وهو تمرئة الاسلوب العربي من السجع والبديع حتى أصبحنا نكتب بسهولة . بيساطة يفهمها الشعب . كم تظن عدد الطبعات التي طبعها كتاب الايام .

قلت : أظنها عشرين طبعة .

فقال : لا .. أكثر .. كم عدد الطبعات يافريد . نعم .. تمام .. ثمان وعشرون طبعة طبعها كتاب الايام للبساطة التي يفهمها الشعب .

قلت : هل يأمل الدكتور طه ان نولد عندنا مدرسة ادبية عربية يوما ما؟

فقال : أرجو ان يكون ذلك قريبا بشرط أن تدرس اللغة العربية درسا منتجا . وأنا أراهن أن الطالب عندنا يعرف اللغة الأجنبية التي يتعلمها أكثر مما يعرف الفصيح من العربية . واذكر أن ابني كان يدفع في المدرسة التي يتعلم فيها عشرة قروش للكتبة وكان المدرس يكلفه قراءة كتب أدبية هامة ثم يسأله عما قرأ وكان يسهر ليقرأ . وكانت الأنوار تطفأ في حجرات المسكن الا في حجرته حتى كانت أمه تضطر في بعض الليالي لمغادرة حجرتها لتطفىء عليه النور لكي ينام . وأذكر انني قلت لمدير المدرسة التي يتعلم فيها ارجوكم أن تخففوا عنه من القراءة شيئا ما .

ثم أحضرت لابني مؤنس مدرس لغة عربية وسار معه المدرس شوطا طويلا . حتى فوجئت ذات يوم بدخول ابني علي وهو في أشد حالات الغيظ وقال لي :

هل تستطيع يا أبي أن تتحمل هذا ؟ فسألته : ماذا ؟

فقال : في الصباح أقرأ في المدرسة كورني وراسين . وبعد الظهر في البيت أكتب موضوع انشاء عربي عن مناقشة بين الحجر والمسمار ؟!

وابتسمنا معا ـ الدكتور طه وأنا ـ ونحن واثقان أن كل شيء يتجه الى أحسن وأفضل . ثم سألت الدكتور طه :

ـ الى أي حد تغيرت مسئوليات الاديب العربي اليوم عنها قبل ذلك ؟

فقال :

ـ انها لم تتغير بل انها تتطور .

ثم استطرد يؤكد كل كلمة ينطق بها كأنما يخاف على أن أنسى

ـ الأديب مسئول عما يكتب من جهة ومسئول عن أن يكون ما يكتبه هادفا الى أن يرقى بالجماعة من جهة أخرى ومسئول أمام القـــانون وتلك أخف مسئولياته لأن المسئولية الكبرى هي أن يعرف أنه يجب أن يكتب ليرفع الجماعة لا ليحط بها . هذه هي مســـئوليات الاديب .

ـ هل أدى النـــاقد العربي دوره المطلوب منه ؟

فأجاب الدكتور طه

ـ هل تريد الجواب ؟

قلت

ـ طبعا ذلك .

قال

ـ لم يؤد النقد العربي دوره حتى الآن ..

ـ لماذا يا سيدي ؟

ـ الجواب ليس عندي ، بل الجواب في الكتب والصحف والمجلات التي وجدت بين الجريين . فان شـــئت فارجع الى ما كان يكتب فيهـــا . واقرأ ما يكتب الآن وأنا لا اشك في انك ستجد الفرق هائلا ، واقل ما يوصف به النقـــد في الفترة التي اعنيها .

انه كان فوق الاعتبارات الشخصية واذكر ان كتابا ظهر للعقاد في تلك الفترة وكان العقاد يكتب في صـــحف الوفد فاثنيت عليه أنا في الصـــحيفة التي اكتب فيها ولم تكن صحيفة وفدية ، وعصبوا مني عندئذ لكنني لم ابال لان النقد الادبي في رأيي يجب أن يكون فوق كل اعتبار . ومن النقـــاد الذين شاركوا في النقد الاصيل في هذه الفترة العقاد والمازني .

قلت وعلى ذكر النقد والنقاد أحب ان اسأل سيادتكم

ـ هل تفضل أن يســـتغل الاديب العربي بنوع أدبي واحد فيكون قصاصا او شاعرا أو ناقدا أو تفضل العكس ؟

ـ أنا افضـــل أن تقولوا « كاتب وقصاص » او « كاتب وشـــــاعر » وسأذكر لك شيئا من القديم وشيئا من الجديد في الاجابة عن هذا السؤال .

أما القديم ، فقد قال المبرد مؤلف الكامل في كتابه « ما يذكر فيه من كل شيء شـــيئا » ثم عرض المؤلف لتعريف الاديب

فقال « انه من يأخذ بطرف من كل الوان المعرفة »

أما الجديد « فالـــكتب القليلة التي ظهرت في النقـــد في الادب الانجليزي كلها لا تعجبني . فالكاتب اديب والاديب من يأخذ بطرف من كل الوان المعرفة »

أما احتكار النقد أو احتكار اي لون من ألوان الفنون فلا اعرفه الا بأنه تعصب وليس هناك شيء يدعـــو الى التعصب الا الجهل .

ان قواعد النقد عندي كلام فارغ . فهناك جانبان لكل نقد مقرران معروفان عند الامم .

خذ القصـــة مثـــلا . فحين عندما نقرؤها نسأل أول ما نسأل « ما أثر هذه القصة بالقيـــاس الى الذوق ؟ ثم ـ ما العيوب التي يمكن أن توجد فيها من جهة الواقع أو من جهة اللغـــة أو غير ذلك ؟

وهذا هو الواقع عنـــد كبار النقاد الفرنسيين . فهم لا يعرفون قواعـــد النقد . والنقد عندهم ملائمة العمل الفني

للقواعد العامة من جهة ثم للقواعد الخاصة من جهة أخرى .

أما ما يسمى بقواعد النقد فسيكون مصيره مصير كتاب الخطابة وكتاب الشعر لارسطاطاليس .. كتاب الخطابة .. راح .. وكتاب الشعر .. راح

فالكاتب يكون فصاصا وشاعرا وناقدا .

هذا ما أعرفه .

وسكت طه حسين وعلى محياه دلائل انتظار لسؤال آخر . لكنني ادركت انني قصيت ساعتين كاملتين وانا استمع لحديثه . وكانت نوازع الاستزادة تملأ نفسي . لكن وهج المدفأة الكهربائية القريبة من المكتب وكرسي أنيما في الشتاء . وان من حق الدين لا يبخلون بأوقاتهم وجهودهم على الناس الا نثقل عليهم .

وخرجت وأنا أفكر في سؤاله عن الادب والأديب .

« ان الادب حاجة تضطر الاديب الى الحركة فيتحرك . وتدفعه الى العمل فيعمل أما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الايام حين تصبح أمرا مقضيا لا مصرف عنه ولا سبيل الى التخلص منه » .

ووقفت وأنا لا أزال على مقربة من الباب حتى خيل الى ان ارجع لاسأل الدكتور طه عن معنى هذا . لكنني تذكرت أنه قال لي

« ان مسئولية الاديب الكبرى هي ان يعرف انه يجب أن يكتب ليرفع الصناعة لا ليسقط بها » .